وقفة عند الذكرى الرابعة لمعركة الكرامة

هاني الحسن

ان الحديث عن معركة الكرامة عاد فاصبح اليوم مقيدا . أولا لان الثورة الفلسطينية موجودة الان من جديد في مرحلة ما قبل الكرامة وثانيا لان اطنانا من الورق استهلكت بالحديث عن حرب الشعب أو الثورة الشعبية المسلحة حتى كاد يخيل لابناء الشعب ان تحرير فلسطين بات قاب قوسين أو أدنى ، وفجأة وجد ابناء الشعب العربي انفسهم بعد تجربة اربع سنوات ، أن الاسئلة التي تقرع وجدانهم ما زالت بدون اجابة . لذلك لعله من المفيد جدا أن نقف في ذكرى معركة الكرامة وقفة تحليلية امام الحدث الذي هز وجدان الامة العربية وجعلها تنبض من اعماقها مجبرة الاستعمار والرجعية الموغلة في التآمر في الاردن على التراجع المؤقت أمام الزحف الجماهيري ، لتعود في عام ١٩٧٠ للتصدي لها وكسب الجولة عليها من جديد .

ان المطلوب اليوم في عام المحنة عام ١٩٧٢ ، ليس وقفة عسكرية لتأريخ عملية الهجوم والدفاع ، وتثبيت الخطط والمحاور التي جرى القتال عليها . وانما المطلوب وقفة لاستنباط قيمة ومعنى الحدث سياسيا والدروس المستفادة والتي أهمها معنى الجيش الشعبي .

الوضع السياسي الذي ولدت فيه معركة الكرامة

كان مقررا ان تبدأ الثورة الفلسطينية الحديثة عام ١٩٦٣ وليس عام ١٩٦٥ كما حدث . والسبب هو قناعة فتح ان اسرائيل بدأت تستعد لحرب جديدة بعدما استوعبت وهضمت ما حصلت عليه نتيجة لحرب ١٩٤٨ ولحرب ١٩٥٦ — وهذه القناعة الفتحوية كانت تعتمد على أمرين اساسيين أولهما بوادر الازمة الاقتصادية الاسرائيلية التي بدأت تشتد حدتها بشكل خاص منذ مطلع عام ١٩٦٣ ، تلك الازمة التي لا يمكن لنظام رأسمالي احتكاري كاسرائيل ان يحلها الا بطرق الاستعمار التقليدية ، أي الحرب . وثانيهما بيئة اسرائيل النفسية والفكرية ، والتي تجعل التساؤل الى أي حد تزمع اسرائيل التوسع والتوقف مسؤالا سطحيا لان اسرائيل ستتوسع ما دامت القوى العربية المعيقة والمانعة لقوتها العسكرية من التوسع والامتداد دون مستواها . فالقوى كالماء تتجه دائما نحو المنخفضات .

كان ظهور العاصفة عام ١٩٦٥ ظاهرة تحد لجميع الانظمة والمؤسسات السياسية البارزة والتي كانت قائمة بشكل خاص،في المنطقة العربية المجاورة لفلسطين .وكان للطرح الثوري الجديد الذي طرحته فتح والذي يقود في النهاية الى رفض اعتبار خط الهدنة خطا دفاعيا ثابتا ، أي الى رفض المنطق الاستراتيجي العربي . كان لذلك الطرح ردة فعل وصلت حد مقاومة رجال الثورة الجديدة واعتقال رجالها ومطاردتهم . وكان للنظام الهاشمي (اسرائيل الداخلية) اليد الطولى في تطبيق قرار القيادة العربية الموحدة والقاضي بمطاردة الفدائيين . فأول شهيد للثورة الفلسطينية سقط على يد الاردن وليس على